كتاب : ذم قسوة القلب .

للحافظ ابن رجب الحنبلي

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام العلامة الحافظ زين الدين ابن الشيخ أبو العباس أحمد بن رجب– فسح الله في مدته ونفع به – :

الحمدُ لله

رسالة في ذمِّ قسوة القلب ، وذكرِ أسبابها ، وما تَزول به .

أما ذمُّ القسوة :

قال تعالى : {**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**} ، ثم بيَّن وجه كونها أشدّ قسوة بقوله تعالى : {**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ**} البقرة : 74 .

وقال تعالى : {**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**} الحديد : 16 ، وقال تعالى : {**فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**} الزمر : 22 ، فوصف أهل الكتاب بالقسوة ، ونهانا عن التشبّه بهم.

قال بعض السلف: لا يكون أشدّ قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا .

وفي الترمذي من حديث ابن عُمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب ، وإنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسي))** .

وفي مسند البزَّار عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **((أربعة من الشقاء: جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا))**،

وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من طريق أبي داوود النخعي الكذَّاب ، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة ، عن أنس .

وقال مالك بن دينار : ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب . ذكره عبدالله بن أحمد في الزهد .

وقال حُذيفة المرعشي : ما أُصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قساوة قلبه . رواه أبو نعيم .

وأما أسباب القسوة .. فكثيرة:

منها : كثرة الكلام بغير ذكر الله ، كما في حديث ابن عمر السابق .

ومنها :نقضُ العهد مع الله تعالى ، قال تعالى : {**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**} المائدة : 13 .

قال ابن عقيل يوماً في وعظه : يا من يجد من قلبه قسوة **!** احذر أنْ تكون نقضت عهداً **!** فإن الله يقول : {**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ** ..} الآية .

ومنها : كثرةُ الضَّحك ، ففي الترمذي عن الحسن ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**لا تُكثروا الضحك ، فإن كثرة الضحك تُميت القلب**)) ، وقال : روُي عن الحسن قوله .

وخرَّج ابن ماجة من طريق أبي رجاء الجَزَري ، عن برد بن سِنان ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**كثرة الضحك تُميت القلب**))، ومن طريق إبراهيم بن عبدالله بن حُنين ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومنها :كثرةُ الأكل ، ولا سيما إنْ كان من الشُّبهات أو الحرام.

قال بشر بن الحارث : خَصلتان تُقسِّيان القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل . ذكره أبو نعيم.

وذكر المرُّوذي في كتاب الورع قال : قلتُ لأبي عبدالله – يعني أحمد بن حنبل – : يجدُ الرجل من قلبه رقّة وهو شبع ؟ قال : ما أرى .

ومنها :كثرة الذنوب ، قال تعالى : {**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**} المطففين : 14 .

وفي المُسند ، والترمذي عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**إنَّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداء في قلبه ، فإنْ تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه :** {**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**})) . قال الترمذي : صحيح .

قال بعض السلف : البدن إذا عري رقَّ ، وكذلك القلب إذا قلّت خطاياه أسرعت دمعته .

وفي هذا المعنى يقول ابن المبارك – رحمه الله – :

رأيتُ الذنوب تُميت القلوب * ويُورثك الذُلَّ إدمانها**

وترك الذنوب حياة القلوب * وخيرٌ لنفسك عصيانها**

وأمَّا مزيلاتُ القسوة فمتعددة أيضاً :

فمنها :كثرةُ ذكر الله الذي يتواطأ عليه القلب واللسان ، قال المعلَّى بن زياد : إنَّ رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد ، أشكو إليك قسوة قلبي ؟ قال : أدنه من الذكر .

وقال وهب بن الورد : نظرنا في هذا الحديث ، فلم نجد شيئاً أرق لهذه القلوب ، ولا أشد استجلاباً للحق؛ مِن قراءة القرآن لمن تدبَّره .

وقال يحيى بن مُعاذ ، وإبراهيم الخوَّاص : دواءُ القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرّع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

والأصل في إزالة قسوة القلب بالذكر؛ قوله تعالى : {**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} الرعد : 28 ، وقوله تعالى : {**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ**

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} الزمر : 23 ، وقال تعالى : {**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**} الحديد : 16 .

وفي حديث عبدالعزيز بن أبي روَّاد مُرسلاً ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((**إنَّ هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**)) قيل : فما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال : ((**تلاوةُ كتاب الله ، وكثرة ذكره**)) .

ومنها :الإحسان إلى اليتامى والمساكين ، روى ابن أبي الدنيا : حدثنا علي بن الجعد ، حدثني حمَّاد بن سلمة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أبي هريرة : أنَّ رجلاً شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوةَ قلبه ؟ فقال : ((**إنْ أحببت أنْ يلين قلبك؛ فامسح رأس اليتيم ، وأطعم المساكين**)) إسناده جيد، وكذا رواه ابن مهدي عن حماد بن سلمة ، ورواه جعفر بن مسافر : حدثنا مُؤمَّل ، حدثنا حمَّاد ، عن أبي عمران ، عن عبدالله بن الصامت ، عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا كأنَّه غيرُ محفوظ عن حمَّاد، ورواه الجوزجاني : حدثنا محمد بن عبدالله الرّقاشي ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو عمران الجوني مُرسلاً ، وهو أشبه ، وجعفر أحفظ لحديث أبي عمران من حمَّاد بن سلمة .

وروى أبو نُعيم ، من طريق عبدالرزاق ، عن معمر ، عن صاحب له : أنَّ أبا الدرداء كتب إلى سلمان : ارحم اليتيم وأدنه منك ، وأطعمه من طعامك . فأنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجلٌ يشتكي قساوةَ قلبه ؟ فقال : ((**أتحب أنْ يلين قلبُك ؟**)) فقال له : نعم . فقال : ((**ادن اليتيم منك وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك ، فإنَّ ذلك يُلين قلبك ، وتقدر على حاجتك**)) .

قال أبو نُعيم : ورواه ابن جابر ، والمُطعم بن المقدام ، عن محمد بن واسع : أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان مثله .

ونقل أبو طالب : أنَّ رجلاً سأل أبا عبدالله – يعني أحمد بن حنبل – فقال له : كيف يرقُّ قلبي ؟ قال : ادخل المقبرة ، وامسح رأس اليتيم .

ومنها :كثرة ذكر الموت ، ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده ، عن منصور بن عبدالرحمن ، عن صفية : أنَّ امرأة أتت عائشة تشكو إليها القسوة ؟ فقالت : أكثري ذكر الموت؛ يرقّ قلبك ، وتقدرين على حاجتكِ . قالت : ففعلت ، فأنِستْ من قلبها رشداً فجاءت تشكر لعائشة رضي الله عنها .

وكان غير واحد من السلف منهم: سعيد بن جُبير وربيع بن أبي راشد ، يقولون: لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبنا .

وفي السُّنن : عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((**أكثروا ذكر هاذم اللّذات**)) – الموت – .

ورُوي مُرسلاً عن عطاء الخراساني قال : مّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك ! فقال : ((**شُوبوا مجلسكم بذكر مكدِّر اللّذات**)) قالوا : وما يُكدر اللّذات يا رسول الله ؟ قال : ((**الموت**)) .

ومنها :زيارة القبور والتفكر في حال أهلها ومصيرهم ! وقد سبق قول أحمد للذي سأله ما يُرقُّ قلبي ؟ قال : ادخل المقبرة ! .

وقد ثبت في صحيح مسلم : عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**زُوروا القبور فإنها تُذكِّر الموت**)) .

وعن بُريدة ، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنَّها تذكر الآخرة**)) رواه أحمد ، والترمذي وصححه .

وعن أنس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ، ثم بدا لي أنَّه تُرقُّ القلب ، وتُدمع العين ، وتُذكر الآخرة ، فزوروها ولا تقولوا هُجرا**)) رواه الإمام أحمد ، وابن أبي الدنيا .

وذكر ابنُ أبي الدنيا : عن محمد بن صالح التمار قال : كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمر بي ، فاتبعته ذات يوم؛ وقلت : والله لا انظرنَّ ما يصنع ! قال : فقنَّع رأسه وجلس إلى قبر منها ، فلم يزل يبكي حتى رحمته . قال : ظننتُ أنه قبر بعض أهله ! قال : فمرَّ بي مرة أخرى ، فاتبعته فقعد إلى جنب قبرٍ غيره ، ففعل مثل ذلك . فذكرتُ ذلك لمحمد بن المنكدر وقلت : إنّما ظننتُ أنه قبر بعض أهل .

فقال محمد : كلهم أهل وإخوانه ! إنَّما هو رجل يُحَّرك قلبه بذكر الأموات كلَّما عرضت لهو قسوة . قال : ثم جعل محمد بن المنكدر بعد يمّر بي فيأتي البقيع ، فسلَّمتُ عليه ذات يوم ، فقال : ما نفعتك موعظة صفوان ؟ قال : فظننت أنه انتفع بما ألقيتُ إليه منها .

وذكر أيضاً : أنَّ عجوزاً متَعبِّدة من عبدالقيس كانت تُكثر إتيان القبور ، فعُوتبت في ذلك . فقالت : إنَّ القلب القاسي إذا جفا لم يليّنه إلا رسول البِلى ، وأنّي لآتي القبور وكأني انظر إليه وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأني انظر إلى تلك الوجوه المتعفِّره ، وإلى تلك الأجسام المتغيّرة ، وإلى تلك الأكفان الدنسة !!، فيا له من منظر لم أَسُرّ به .. قلوبهم ، ما أنكل مرارة الأنفس ، وأشد تلفة الأبدان.

وقال زياد النميري : ما اشتقت إلى البكاء إلا مررت عليه . قال له رجل : وكيف ذلك ؟ قال : إذا أردتُ ذلك خرجت إلى المقابر فجلست إلى بعض تلك القبور ، ثم فكَّرتُ فيما صاروا إليه من البِلى ، وذكرت ما نحن فيه من المُهلة . قال : فعند ذلك تختفي أطواري ! .

وقلتُ والله الموفِّق :

أفي دار الخراب تظل تبني * وتعمر ما لعمران خُلقتا**
وما تركت لك الأيام عذراً * لقد وعظتك لكن ما تعظتا**
تُنادي للرحيل بكل حين * وتُعلن إنّمَا المقصودُ أنتا**
وتُسمعك النداءَ وأنت لاهٍ * عن الداعي كأنَّك ما سمعتا**
وتعلم أنَّه سفرٌ بعيد * وعن إعداد زادٍ قد غفلتا**
تنام وطالب الأيام ساعٍ * وراءك لا ينام فكيف نمتا**
معائب هذه الدنيا كثير * وأنت على محبّتها طُبعتا**
يضيع العمرُ في لعبٍ ولهو * ولو أُعطيت عقلاً ما لعبتا**
فما بعد الممات سوى جحيم * لعاص أو نعيم إنْ أطعتا**
ولست بآملٍ باطلٍ رداً لدنيا * فتعملُ صالحاً فيما تركتا**
وأوَّلُ من ألوم اليوم نفسي * فقد فعلتْ نظائرَ ما فعلتا**

أيا نفسي أخوضاً في المعاصي *** وبعد الأربعين وفيت ستـا

وأرجـو أنْ يطول العمرُ حتى *** أرى زاد الـرحيـل وقد تأتّى

أيا غُصن الشباب تميل زهواً *** كأنك قد مضى زمـن وشبتا

علمتَ فدع سبيلَ الجهل واحذر *** وصحح قد علمتَ وما عملتا

ويا من يجمع الأموال قـل لي *** أيمنعك الرّدى ما قد جمعتـا

ويا من يبتغي أمـراً مطاعاً *** ليسمع نـافـذاً مَن قـد أمـرتا

عججت إلـى الولاية لا تُبالي *** أجرت علـى البرية أم عدلتا

ألا تـدري بـأنك يوم صارت *** إليك بغير سكـين ذُبـحتـا

وليس يقوم فرحةُ "قد تولَّـى" *** بترحة يوم تسمع "قد عُزلتـا"

ولا تُهمل فإن الوقت يسري *** فإنْ لم تغتنمه فقـد أضعتـا

ترى الأيام تُبلي كـل غُصن *** وتطوي مِن سرورك ما نشرتا

وتعلـم إنّمـا الدنيـا منـام *** فأحلـى ما تكون إذا انتبهتا

فكيف تصدّ عن تحصيل باق *** وبـالفاني وزخرفـه شُغلـتا

هـي الـدنيا إذا سرتك يوماً *** تسوؤك ضعف ما فيها سُررت

تغرّك كـالسراب فأنت تسري *** إليه وليـس تشعر إن غُررتا

وأشهد كمْ أبادت من حبيب *** كـأنك آمن ممـا شهـدتـا

وتـدفنهم وتـرجع ذا سُرور *** بما قـد نلت من إرث وحرثا

وتنساهـم وأنت غداً ستفنى *** كـأنك مـا خُلقت ولا وجدتا

تُحِّـدث عنهم وتقـول: كانوا *** نعم كـانوا كمـا والله كنتـا

حديثك هـم وأنت غداً حديثٌ *** لغيرهم فـأحسن ما استطعتا

يعود المرء بعد الموت ذكراً *** فكن حسن الحديث إذا ذُكرتا

سـل الأيام عـن عم وخـال *** وما لك والسؤال وقد علمتا

ألست تـرى ديـارهم خلاءً *** فقد أنـكرت منها ما عرفتا

ومنـها :النظرُ في ديار الهالكين ، والاعتبار بمنازل الغابرين .

روى ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار بإسناده : عن عمر بن سُليم الباهلي ، عن أبي الوليد أنه قال : كان ابن عمر إذا أراد أنْ يتعاهد قلبه؛ يأتي الخَربة فيقف على بابها ، فيُنادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : كلٌّ شيء هالكٌ إلا وجهه !! .

وروى في كتاب القبور بإسناده : عن محمد بن قدامة قال : كان الرَّبيع بن خُثَيم إذا وجد مِن قلبه قسوةً يأتي منزل صديق له قد مات؛ في الليل فيُنادي : يا فلان بن فلان ، يا فلان بن فلان . ثم يقول : ليت شِعري !! ما فعلتَ وما فُعل بك ؟ ثم يبكي حتى تسيل دموعه ، فُيعرف ذلك فيه إلى مثلها .

ومنها :أكلُ الحلال ، روى أبو نُعيم وغيره ، من طريق عمر بن صالح الطرسوسي قال : ذهبتُ أنا ويحيى الجلاء – وكان يُقال إنّه من الأبدال – إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل فسألته – وكان إلى جنبه بوران وزُهير وهارون الجمال – فقلت : رحمك الله يا أبا عبدالله بما تلين القلوب ؟ فنظر إلى أصحابه فغمزهم بعينه ، ثم أطرق ثم رفع رأسه فقال : يا بني بأكل الحلال . فمررتُ كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث فقلت له : يا أبا نصر بما تلين القلوب ؟ فقال : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . فقلتُ : فإني جئتُ من عند أبي عبدالله . قال : هيه ! أي شيءٍ قال لك أبو عبدالله ؟ قلت : قال : بأكل الحلال . فقال جاء بالأصل ، جاء بالأصل ! فمررتُ إلى عبدالوهاب الوراق فقلتُ : يا أبا الحسن بما تلين القلوب ؟ فقال : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . قلت : فإن جئتُ من أبي عبدالله . فاحمرَّت وجنتاه من الفرح ! فقال لي : أي شيءٍ قال أبو عبدالله . قلت : قال : بأكل الحلال . فقال : جاءك بالجوهر ، جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال !! .

والحمد لله وحده .